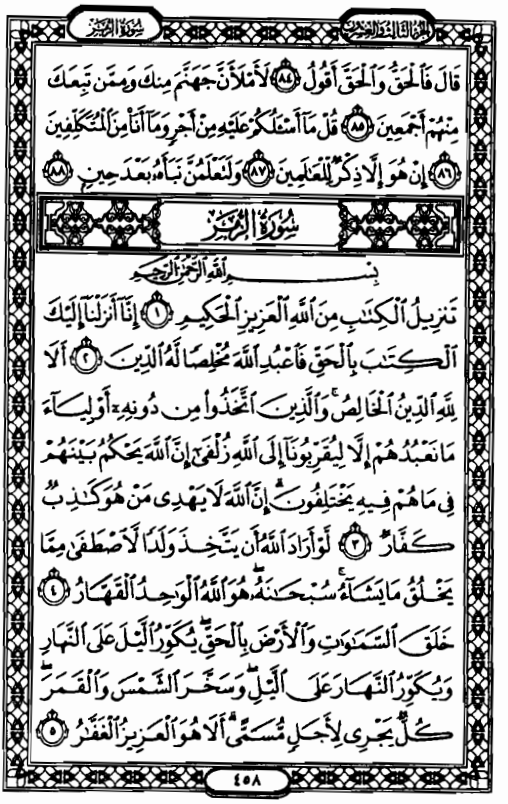
قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ
مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ
﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ الزُّمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا
لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ
مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ
كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ
وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ
كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾

٤٥٨

معانى الكلمات :

المتكلفين : المتصنعين .

ذكر : عظة وعبرة .

أولياء : شركاء .

زلفى : تقريبا إلى الله .

كفار : مبالغ فى كفره .

يكور الليل على النهار : يلفه على النهار .

ويكور النهار على الليل : يلفه على الليل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن المعركة بين الشيطان وبين آدم وذريته قائمة والعاقبة فى وعد الله واضحة .

٢ ـ أن نؤمن أن القرآن الكريم منزل من عند الله الذى أنزله بحكمة وتدبير .

٣ ـ أن نتعلم كيفية التدبر فى خلق السموات والأرض ، وظاهرة الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر .

المحتوى التربوى :

يعلن سبحانه إرادته ، ويحدد منهجه ، فالله عز وجل هو الحق ، وقوله الحق ، ويقسم الله عز وجل أن يملأ جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين لا يترك منهم أحدًا ، ولما بين الرسول للناس الدليل ووضح لهم السبيل ، قال الله له: قل ما أسألكم على القرآن أو الوحى أو الإنذار من أجر ، ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجراً تعطونيه من عرض الحياة الدنيا حتى تظنوا بى الظنون ، وما أنا من الذين يتصنعون ويتحلَّون بما ليسوا من أهله ، وما عرفتمونى قط متصنعا ولا مدعيا بما ليس عندى ، حتى أنتحل النبوة ، وأتقوَّل القرآن ، وأمره أن يلفت نظرهم إلى خصائصه الذاتية التى تدل ـ وحدها ـ على أنه لا يمكن أن يكون إلا رسولا صادقا لله ، ثم أمره أن يلفت نظرهم إلى خصائص القرآن ، فما القرآن إلا ذكر من الله للثقلين أوحى إلى فأنا أبلغه

ولتعلمَّن خبر القرآن وما فيه من الوعيد خصائص القرآن ؛ فما القرآن إلا ذكر من الله للثقلين أوحىَ إلى ، فأنا أبلغه ، ولتعلمن خبر القرآن وما فيه من الوعد والوعيد ، وذكر البعث والنشور بعد الموت أو يوم القيامة .

قال صاحب الظلال : « إنها الدعوة الخالصة للنجاة التى لا يطلب صاحبها أجراً وهو الداعية السليم ، الذى ينطق بلسانه ، لا يتكلف ولا يتصنع ، ولا يأمر إلا بما يوحى منطق الفطرة القريب ، وإنه للتذكير للعالمين أجمعين فقد ينسون ويغفلون ، وإنه للنبأ العظيم الذى لا يلقون بالهم إليه اليوم ، وليعلمن نبأه بعد حين ، نبأه فى الأرض ـ وقد علموه بعد سنوات من هذا القول ـ ونبأه فى اليوم المعلوم ، عندما يحق وعد الله اليقين : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

سورة الزمر

هذه السورة تكاد تكون مقصورة على علاج قضية التوحيد ، وهى تطوف بالقلب البشرى فى جولات متعاقبة ، وتوقع على أوتاره إيقاعات متلاحقة ، وتهزه هزاً عميقاً متواصلاً لتطبع فيه حقيقة التوحيد وتمكنها ، وتنفى عنه كل شبهة ، وكل ظل يشوب هذه الحقيقة .

جاءت مقدمة السورة لتقرر أن منزل القرآن الذى لا ريب فيه هو الله العزيز الحكيم ، وفى ذكر اسم الله العزيز فى هذه المقدمة بيان أن الله لم ينزل كتابه ذلك ، وأن ما فيه من تكليف إنما هو تكليف عزيز فى سلطانه ، وفى ذلك إشعار إلى أنه سيحاسب ويعاقب لمن خالف كتابه ، فذلك شأن العزيز ، وفى ذكر اسم الله الحكيم فى هذه المقدمة إشعار بأن كتابة حكيم ، فالحكيم يصدر عنه ما هو حكيم ، وقد أنزله عز وجل بسبب إثبات الحق وإظهاره وتفصيله ، ونزل مشتملا على الحق لهداية الخلق على أشرف الخلق ، عظمت فيه النعمة وجلت ، ووجب القيام بشكرها ، وذلك بإخلاص الدين لله ، جميع الدين من الشرائع الظاهرة والشرائع الباطنة : الإسلام والإيمان والإحسان ، بأن تفرد الله وحده بها ، وتقصد به وجهه لا غير ذلك من المقاصد .

ثم يبين السياق أنه تعالى كما أنه له الكمال كله ، وله التفضل على عباده من جميع الوجوه ، فكذلك له الدين الخالص الصافى من جميع الشوائب ، فهو الدين الذى ارتضاه لنفسه ، وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به؛لأنه متضمن للتأله لله فى حبه وخوفه ورجائه،وللإنابة إليه فى عبوديته، والإنابة إليه فى تحصيل مطالب عباده ، والله لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له ، فلذلك أمر بالتوحيد والإخلاص ، ونهى عن الشرك به ، وأخبر بذم من أشرك به ، والذين اتخذوا من دون الله آلهة فإنهم يقولون : ما نعبدهم إلا ليشفعوا لهم عند الله تعالى فى نصرهم ورزقهم ، وما ينوبهم من أمور الدنيا ، أما الآخرة فكانوا جاحدين لها كافرين بها .

والحكمة فى كون الشرك لا يغفره الله تعالى ؛ لأنه يتضمن القدح فى الله تعالى ، والله يحكم بين المخلصين من عباده، والمشركين فى الذى كانوا يختلفون فيه ، فالمشركون ينازعون ويفلسفون ،

ويجادلون ويدعون ويبررون ، وسيجزى الله كل عامل بعمله ، وهو سبحانه ما يرشد إلى الهداية من قصد الكذب والافتراء على الله تعالى ، وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه ، فإذا اجتمعت صفة الكذب والكفران فى إنسان فإن الله لا يلهمه الهداية ، فليحذر امرؤ من صفتى الكذب ، والكفران ، ولو جاز اتخاذ الولد على ما تظنون لاختار مما يخلق ما يشاء ، لا ما تختارون أنتم وتشاؤون .

وقد أشعرتنا الآية أن بعضا ممن عبدوا مع الله غيره ليتقربوا ـ فى زعمهم ـ إليه ، عبدوهم بعد أن خلعوا عليهم صفات النبوة لله عز وجل ؛ كبعض العرب إذ قالوا : الملائكة بنات الله ، والنصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، واليهود الذين قالوا : عزير بن الله ، وقد رد الله هذا القول وفنّده ، ثم نزه ذاته تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد ، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى كل شىء عبد لديه ، فقير إليه ، وهو الغنى عمّا سواه ، الذى قد قهر الأشياء ، فدانت له وذلت وخضعت ، وإذا كان كذلك فقد كذب من نسب إليه الشريك والولد .

وتأتى اللفتة إلى ملكوت السموات والأرض ، وإلى ظاهرة الليل والنهار ، وإلى تسخير الشمس والقمر ، فتوحى إلى الفطرة بحقيقة الألوهية التى لا يليق معها أن يكون هناك ولد ولا شريك ، فالذى يخلق هذا الخلق وينشئه إنشاء، لا يحتاج إلى الولد ولا يكون معه شريك .

يقول صاحب الظلال : « وآية الوحدانية ظاهرة فى طريقة خلق السموات والأرض ، وفى الناموس الذى يحكم الكون ، والنظر المجرد إلى السموات والأرض يوحى بوحدة الإرادة الخالقة المدبرة ، وما كشفه الإنسان ـ حتى اليوم ـ من دلائل الوحدة فيه الكفاية .... وفى كل يوم يكشف الإنسان عن جديد من دلائل الوحدة فى تصميم هذا الوجود ، ويكشف عن حق ثابت فى هذا التصميم لا يتقلب مع هوى ، ولا ينحرف مع ميل ، ولا يتخلف لحظة ولا يحيد ... ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ وأنزل الكتاب بالحق ، فهو الحق الواحد فى ذلك الكون وفى هذا الكتاب ، وكلاهما صادر من مصدر واحد ، وكلاهما آية على وحدة المبدع العزيز الحكيم » .

وسخر الليل والنهار يجريان متعاقبين لا يفتران ، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثاً ، وفى هذا إشارة واضحة إلى كروية الأرض ؛ إذ التكوير لا يكون إلا للشىء الدائرى ، **فالتكوير** : اللى واللف ، وسخر الله الشمس والقمر كل يجرى فى مداره وهما مسخران بأمر الله ، وستجرى الشمس وسيجرى القمر لأجل علم انتهائه عند الله وحده ، ومع القوة والقدرة والعزة الإلهية ، فالله عز وجل غفار لمن يتوب إليه ممن يكذبون عليه ويكفرون به .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المسلم يتصف بمحاسن الأخلاق ، ولا يتكلف ما ليس فيه .

٢ ـ إن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم .

٣ ـ لا وساطة فى الإسلام بين العباد وربهم .

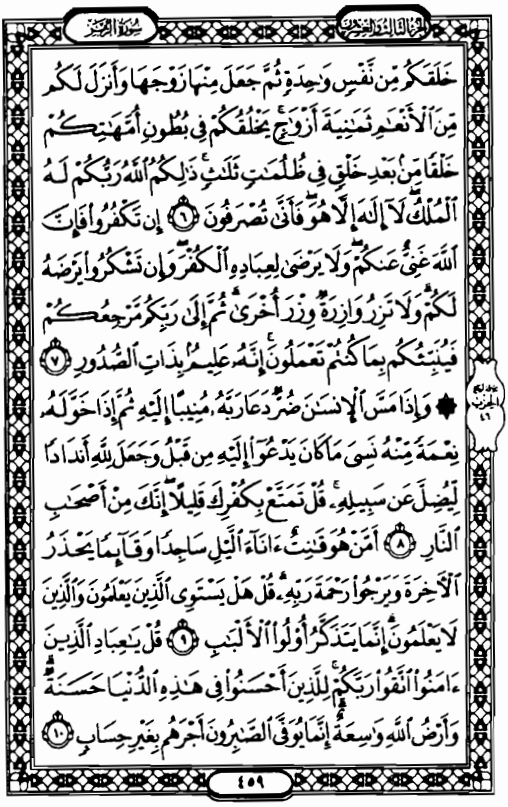
خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم
مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ
خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ
ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ
لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾
۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ
نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا
لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ
ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ
ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ
وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾
٤٥٩

معانى الكلمات :

زوجها : حواء .

خلقا من بعد خلق : أطوارًا بعد أطوار .

فأنى تصرفون : كيف تصرفون .

منيباً : راجعا .

خوله : أعطاه .

أندادا : أمثالا .

ليضل : ليصد .

قانتًا آناء الليل : مطيعًا لله جميع ساعات الليل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم فضل الله تعالى على العباد فى خلقهم ورزقهم .

٢ ـ أن نؤمن بغنى الله تعالى عن خلقه ، وافتقار الخلق إليه .

٣ ـ أن نعلم فضل العالم على الجاهل .

المحتوى التربوى :

ينتقل السياق إلى لمسة فى أنفس العباد ، ويشير إلى آية الحياة القريبة منهم فى أنفسهم ، وفى الأنعام المسخرة لهم ، فمن عزته سبحانه أنه خلقكم من نفس واحدة وهى آدم على كثرتكم وانتشاركم، واختلاف أجناسكم وأصنافكم، وألسنتكم وألوانكم ، ثم جعل منها زوجها حواء ، وذلك ليسكن إليها وتسكن إليه، وتتم بذلك النعمة، وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وقد أنزل الله الماء فأخرج به النبات الذى تعيش عليه الأنعام فكأنه أنزلها ، والأنعام الثمانية كما جاءت فى آية أخرى : هى الضأن والمعز والبقر والإبل من كل ذكر وأنثى ، وكل من الذكر والأنثى يسمى زوجا عند اجتماعهما ، فهى ثمانية فى مجموعها .

ثم يعود ـ بعد هذه الإشارة ـ إلى وحدة خاصية الزوجية فى الناس والأنعام إلى تتبع مراحل الخلق للأجنة فى بطون أمهاتها من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام ، إلى الخلق الواضح فيه

عنصر البشرية ، وذلك فى ظلمات ثلاث : ظلمة الكيس الذى يغلف الجنين ، وظلمة الرحم الذى يستقر فيه هذا الكيس ، وظلمة البطن الذى يستقر فيه الرحم ، ويد الله تخلق هذه الخلية الصغيرة خلقا من بعد خلق، وعين الله ترعى هذه الخلية وتودعها القدرة على النمو، والقدرة على التطور ، والقدرة على الارتقاء ، والقدرة على السير فى تمثيل خطوات النفس البشرية كما قدر لها بارئها .

وتتبع هذه الرحلة القصيرة الزمن البعيدة الآماد ، وتأمل هذه التغيرات والأطوار ، وتدبر تلك الخصائص العجيبة التى تقود خطا هذه الخلية الضعيفة فى رحلتها العجيبة ... فى تلك الظلمات وراء علم الإنسان وقدرته وبصره » هذا كله من شأنه أن يقود القلب البشرى إلى رؤية يد الخالق المبدع ، رؤيتها بآثارها الحية الواضحة الشاخصة ، والإيمان بالوحدانية الظاهرة الأثر فى طريقة الخلق والنشأة ، فكيف يصرف قلب عن رؤية هذه الحقيقة؟

وأمام هذه الرؤية الواضحة لآية الوحدانية المطلقة ، وآية القدرة الكاملة ، يقفهم أمام أنفسهم ، فى مفرق الطريق بين الكفر والشكر ، وأمام التبعة الفردية المباشرة فى اختيار الطريق ، ويلوح لهم بنهاية الرحلة، وما ينتظرهم هناك من حساب، يتولاه الذى يخلقهم فى ظلمات ثلاث ، والذى يعلم ما تكن صدورهم من خفايا الصدور ، وهذه الرحلة فى بطون الأمهات هى مرحلة فى الطريق الطويل ، تليها مرحلة الحياة خارج البطون ، ثم تعقبها المرحلة الأخيرة مرحلة الحساب والجزاء بتدبير المبدع العليم الخبير .

والله ـ سبحانه ـ غنى عن العباد الضعاف المهازيل ، إنما هى رحمته وفضله أن يشملهم بعنايته ورعايته ، وهم من هم من الضعف والهزال ؛ فإيمانكم لا يزيد فى ملكه شيئا ، وكفركم لا ينقص منه فتيلا ، ولكنه لا يرضى عن كفر الكافرين ولا يحبه ، ويعجبه الإيمان منكم ويحبه لكم ويجزيكم عليه خيرا ، وكل فرد مأخوذ بعمله ، محاسب على كسبه ، ولا يحمل أحد عبء أحد ، فلكل حمله وعبؤه ، والمرجع فى النهاية إلى الله دون سواه ، ولا مهرب منه ولا ملجأ عند غيره ، ولا يخفى عليه من أمركم شىء ، وهذه هى العاقبة ، وتلك هى دلائل الهدى ، وهذا هو مفرق الطريق ، ولكل أن يختار عن بينة وعن تدبر وبعد العلم والتفكير .

وبعد أن عرض السياق قصة وجودهم وخلقهم من نفس واحدة ، وتزويجها من جنسها ، يلمس القلوب لمسة أخرى وهو يعرض عليهم صورتهم فى الضراء وصورتهم فى السراء ، ويريهم تقلبهم وضعفهم وادعاءهم وقلة ثباتهم على نهج إلا حين يتصلون بربهم ويتطلعون إليه ، ويقنتون له ، فيعرفون الطريق ، ويعلمون الحقيقة ، وينتفعون بما وهبهم الله من خصائص الإنسان .

فيخبر تعالى عن كرمه بعبده وإحسانه وبره ، وقلة شكر عبده ، وأنه حين يمسه الضر ؛ من مرض أو فقر أو وقوع فى كربة، أنه يعلم أنه لا ينجيه فى هذا الحال إلا الله، فيدعوه متضرعا منيبا ، ويستغيث به فى كشف ما نزل به ويلح فى ذلك ، وحين يذهب الضر ويأتى الرخاء ، ويعطيه الله نعمة منه ، ويرفع عنه البلاء ، نسى هذا العبد ربه الذى كان يتضرع إليه ، ونسى الضر الذى كان

يدعو الله إلى كشفه ، وأشرك بالله وجعل له أنداداً ، وسبيل الله واحد لا يتعدد ، وإفراده بالعبادة والتوجه والحب هو وحده الطريق إليه .

يقول صاحب الظلال : « والعقيدة فى الله لا تحتمل شركة فى القلب ؛ لا تحتمل شركة من مال ولا ولد ولا وطن ولا أرض ولا صديق ولا قريب ، فأيما شركة قامت فى القلب من هذا وأمثاله فهى اتخاذ أنداد لله ، وضلال عن سبيل الله ، منته إلى النار بعد قليل من المتاع فى هذه الأرض : ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ ، وكل متاع فى هذه الأرض قليل ، حين يقاس إلى أيام الله » .

أقامت هذه الآية الحجة على الكفار بأنهم جاحدون لنعم الله العامة والخاصة ، فالطبيعة الكافرة طبيعة جحود على خلاف الطبيعة المؤمنة ، ومن ثم تأتى الآية اللاحقة لتبين الفارق البعيد بين موقف الكافر وموقف المؤمن ، فهذه مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره ، وبين العالم والجاهل ، وأن هذا من الأمور التى تقرر فى العقول تبيانها ، وعلم علما يقينا تفاوتها ، فليس المعرض عن طاعة ربه ، المتبع لهواه ، كمن هو قانت مطيع لله بأفضل العبادات وهى الصلاة ، وأفضل الأوقات وهى أوقات الليل فوصفه بكثرة العمل وأفضله ، ثم وصفه بالخوف والرجاء ، وذكر أن متعلق الخوف عذاب الآخرة ، على ما سلف من الذنوب وأن متعلق الرجاء رحمة الله ، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن ، فهل يستوى هذا والذى قبله ممن جعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ، وأى علم لمن يجهل ربه ، وما يتعظ بوعظ الله أولو العقول .

يقول صاحب الظلال : « وهذا هو الطريق إلى العلم الحقيقى والمعرفة المستنيرة ، هذا هو .. القنوت لله وحساسية القلب ، واستشعار الحذر من الآخرة ، والتطلع إلى رحمة الله وفضله ، ومراقبة الله هذه المراقبة الواجفة الخاشعة ... هذا هو الطريق » .

وبعد عرض هاتين الصورتين يتجه إلى الذين آمنوا يناديهم آمراً لهم بأفضل الأوامر ، وهى التقوى ، ذاكراً لهم السبب الموجب للتقوى ، وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم ، المقتضى ذلك منهم أن يتقوه ، وذكر لهم الثواب المنشط فى الدنيا ، فالمحسنون لهم حسنة فى الدنيا تقابلها حسنة فى الآخرة ، ولا عذر للمفرطين فى الإحسان ، فإن اعتلوا بأنهم لا يتمكنون فى أوطانهم من التوفر على الإحسان ، قيل لهم : إن أرض الله واسعة ، وبلاده كثيرة ، فتحولوا إلى بلاد أخر ، ومن ثم يشير إلى الصبر ، وجزائه لا يوزن لهم ولا يكال إنما يغرف لهم غرفا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ كل إنسان مسؤول عن نفسه مسؤولية مباشرة فى اختيار طريق الكفر أو طريق الشكر .

٢ ـ المؤمن شاكر فى السراء صابر الضراء .

٣ ـ فضل العالم على الجاهل لعمله بعلمه .

قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ
أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ
قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ
وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾
وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ
فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ
أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾
أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾
لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ۖ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ
أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ
يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ
يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾
٤٦٠

معانى الكلمات :

ظلل من النار: طبقات بعضها فوق بعض .

اجتنبوا الطاغوت : ابتعدوا عن الأوثان .

أنابوا : رجعوا .

حق : وجب .

فسلكه ينابيع : فأدخله فى العيون والمجارى المائية .

يهيج : ييبس ويجف .

حطاما : فتاتا وهشيما .

ذكرى : عظة وعبرة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على بعض أهوال الآخرة وعذاب النار فيها .

٢ ـ أن نعلم أهل البشرى ، وما أعده الله تعالى لأهل التقوى .

٣ ـ أن نؤمن بوحدانية الله وقدرته من خلال التأمل فى حياة النبات .

المحتوى التربوى :

يبدأ السياق بتوجيه الرسول ﷺ إلى إعلان كلمة التوحيد الخالصة ، وإعلان خوفه وهو النبى المرسل من عاقبة الانحراف عنها ، وإعلان تصميمه على منهجه وطريقه ، وتركهم هم إلى منهجهم وطريقهم ، وبيان عاقبة هذا الطريق وذاك يكون يوم الحساب .

فيعلن النبى ﷺ أنه مأمور أن يعبد الله وحده ، ويخلص له الدين وحده ، وأن يكون بهذا أول المسلمين ، وأنه يخاف عذاب يوم عظيم إن هو عصى ربه ، وهذا الإعلان ذو قيمة كبرى فى تجريد عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام، فالنبى ﷺ فى هذا المقام هو عبد الله ، هذا مقامه لا يتعداه ، وفى مقام العبادة يقف العبيد كلهم صفا ، وترتفع ذات الله سبحانه متفردة فوق جميع العباد ، وهذا هو المراد .

وعند ذلك يقر معنى الألوهية ، ومعنى العبودية ، ويتميزان فلا يختلطان ولا يشتبهان ، وتتجرد صفة الوحدانية لله سبحانه بلا شريك ولا شبيه ، وحين يقف محمد رسول الله ﷺ فى مقام العبودية لله وحده يعلن هذا الإعلان ، ويخاف هذا الخوف من العصيان .

ومرة أخرى يكرر الإعلان مع الإصرار على الطريق ، وترك المشركين لطريقهم ونهايته الأليمة ، مرة أخرى يعلن: إننى ماض فى طريقى ، أخص الله بالعبادة ، وأخلص له الدينونة ، فأما أنتم فامضوا فى الطريق التى تريدون ، واعبدوا ما شئتم من دونه ، ولكن هنالك الخسران الذى ما بعده خسران ، خسران النفس التى تنتهى إلى جهنم ، وخسران الأهل سواء كانوا مؤمنين أم كافرين ، فإن كانوا مؤمنين فقد خسرهم المشركون ؛ لأن هؤلاء إلى طريق وهؤلاء إلى طريق،وإن كانوا مشركين مثلهم فكلهم خسر نفسه بالجحيم،واستبدلوا بالجنة ناراً ، وبالدرجات دركات ؛ وهذا الخسران ليس مثله خسران، وهو خسران مستمر ، لا ربح بعده ، بل ولا سلامة .

يقول الفخر الرازى ـ رحمه الله : «إن كلمة هو فى قوله : ﴿ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ تفيد الحصر ، كأنه قيل : كل خسران فإنه يصير فى مقابلته كلا خسران ، ووصفه بكونه مبينا يدل على التهويل...، وإن من أعطاه الله الحياة والعقل والتمكن ، ثم إنه لم يستفد منها لا معرفة الحق ولا عمل الخير البته كان محروما عن الربح بالكلية،وإذا مات فقد ضاع رأس المال بالكلية فكان ذلك خسرانا ، فهذا بيان كونه خسرانا ..،وأما بيان كون ذلك الخسران مبينا،فهو أن من لم يربح الزيادة ولكنه مع ذلك سلم من الآفات والمضار،فهذا كما لم يحصل له مزيد نفع لم يحصل له أيضا مزيد ضرر،أما هؤلاء الكفار فقد استعملوا عقوهلم التى هى رأس مالهم فى استخراج وجوه الشبهات، وتقويه الجهالات والضلالات ، واستعملوا قواهم وقدرهم فى أفعال الشر والباطل والفساد ، فهم قد جمعوا بين أمور فى غاية الرداءة . أولها : أنهم أتعبوا أبدانهم وعقولهم طلبا فى تلك العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة ، وثانيها : أنهم عند الموت يضيع عنهم رأس المال من غير فائدة . وثالثها : إن تلك المتاعب الشديدة التى كانت موجودة فى الدنيا فى نصرة تلك الضلالات تصير أسبابا للعقوبة الشديدة والبلاء العظيم بعد الموت ، وعند الوقوف على هذه المعانى يظهر أنه لا يعقل خسران أقوى من خسرانهم ، ولا حرمان أعظم من حرمانهم ، ونعوذ بالله منه » .

ثم يعرض مشهد الخسران المبين ، وهو مشهد رعيب حقا ، مشهد النار فى هيئة أطباق من فوقهم وأطباق من تحتهم ، وهى محيطة بهم ، فهو مشهد رهيب يعرضه الله لعباده وهم مازالوا فى الأرض يملكون أن ينأوا بأنفسهم عن طريقه ، ويخوفهم مغبته لعلهم يجتنبونه ، ويناديهم ليحذروا ويتقوا ويسلموا . وعلى الضفة الأخرى يقف الناجون ، الذين خافوا هذا المصير المشؤوم ، واجتنبوا عبادة الشياطين ، فهم اجتنبوا عبادة غير المعبود فى أية صورة من صور العبادة ، وهم الذين أنابوا إلى ربهم ، وعادوا إليه ، ووقفوا فى مقام العبودية له وحده ، هؤلاء لهم البشرى صادرة إليهم من الملأ الأعلى ، والرسول ﷺ يبلغها لهم بأمر الله ، إنها البشرى العلوية يحملها إليهم رسول كريم ، وهذا وحده نعيم .

هؤلاء من صفاتهم أنهم يستمعون ما يستمعون من القول ، فتلتقط قلوبهم أحسنة وتطرد ما ما عداه ، فلا يلحق بها ولا يلصق إلا الكلم الطيب الذى تزكو به النفوس والقلوب ، وقد علم الله فى نفوسهم خيراً فهداهم إلى استماع أحسن القول والاستجابة له ، والهدى هدى الله ، وأولئك هم أصحاب العقول والفطر المستقيمة .

قال النسفى رحمه الله : « أراد أن يكونوا نقادا فى الدين يميزون بين الحسن والأحسن ، والفاضل والأفضل ، فإذا اعترضهم أمران واجب وندب ، اختاروا الواجب ، وكذا المباح والندب ، حرصا على ما هو أقرب عند الله ، وأكثر ثوابا ، أو يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن أو يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها ، نحو : القصاص والعفو ونحو ذلك ، أو يستمعون الحديث مع القوم فيه محاسن ومساوئ فيحدث بأحسن ما سمع ، ويكف عما سواه .

وقبل أن يعرض السياق مشهد هؤلاء فى نعيمهم فى الآخرة يقرر أن عبدة الطاغوت قد وصلوا فعلا إلى النار ، وأن أحد لا يملك أن ينقذهم من النار ، والخطاب لرسول الله ﷺ فإذا كان لا يملك هو إنقاذهم من النار التى هم فيها فمن يملكها إذن سواه ؟! ويخبر سبحانه عن عباده السعداء وما أعد لهم ، فلهم منازل فى الجنة رفيعة ، وفوقها منازل أرفع ، فللكفار ظلل من النار وللمتقين غرف طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عاليات ، تسلك الأنهار خلال ذلك كما يشاؤون وأين أرادوا ، وهذا وعد الله وهو كائن لا محالة .

ويلتفت السياق إلى حياة النبات فى الأرض عقب إنزال الماء من السماء وانتهائها إلى غايتها القريبة ، وهذه الظاهرة يوجه إليها القرآن الأنظار للتأمل والتدبر ، فأصل الماء فى الأرض من السماء ، فإذا أنزل الماء من السماء كمن فى الأرض ، ثم يصرفه تعالى فى أجزاء الأرض كما يشاء وينبعه عيونا ما بين صغار وكبار ، بحسب الحاجة إليها ، فليس فى الأرض ماء إلا نزل من السماء ولكن عروق فى الأرض تغيره ؛ ثم يخرج بالماء زرعا مختلفا هيئاته من خضرة وحمرة وصفرة وبياض ، وأصنافه من بر وشعير وسمسم وغير ذلك ، ثم يجف فتراه مصفرا قد خالطه اليبس ثم يجعله فتاتا متكسرا ، وفى هذا عبرة لأصحاب العقول أن الدنيا تكون هكذا والإنسان صائر إلى الموت ، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ النبى مثل عباد الله يخاف عذابه ويرجو رحمته مع أنه نبى ورسول .

٢ـ الخاسرون الحقيقيون هم الذين خسروا أنفسهم بتعريضها لدخول جهنم وخسروا أهلهم.

٣ ـ من صفات المؤمنين المتقين أنهم يستمعون القول فلا يتمسكون إلا بأحسن شىء .

٤ ـ آيات الله ـ تعالى ـ مبثوثة فى الكون ، وعلى المسلم تدبرها .

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ
لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾
ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ
جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن
يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ
ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ
﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ
ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى
هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ
شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ
﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾
٤٦١

معانى الكلمات :

فويل : فهلاك .

كتابا متشابها : قرآنا يشبه بعضه بعضا .

تقشعر : تضطرب .

تلين جلودهم : تطمئن وتسكن .

يتقى بوجهه : يعرض نفسه .

غير ذى عوج : لا اختلاف فيه ولا خطأ .

متشاكسون : متنازعون مختلفون .

سلماً : خالصا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف عاقبة من يستجيبون لذكر الله وعاقبة من غلظت قلوبهم وتحجرت .

٢ ـ أن نعلم بعض خصائص كتاب رب العالمين .

٣ ـ أن نتعلم حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق أن الله يشرح للإسلام قلوبا يعلم منها الخير ، ويصلها بنوره فتشرق به وتستضيء ، والفرق بين هذه القلوب ، وقلوب أخرى قاسية فرق بعيد ، فهل يستوى من وسع الله صدره للإسلام فاهتدى فهو على بيان وبصيرة كمن طبع على قلبه فقسا قلبه فبعد عن الحق ، فويل للقاسية قلوبهم فلا تلين عند ذكر الله ولا تخشع ولا تعى ولا تفهم ، فأولئك فى غواية ظاهرة وضلال بعيد .

قال صاحب الظلال : « وهذه الآية تصور حقيقة القلوب التى تتلقى الإسلام فتنشرح له وتندى به ، وتصور حالها مع الله ، حال الانشراح والتفتح والنداوة والبشاشة والإشراق والاستنارة، كما تصور حقيقة القلوب فى قساوتها وغلظتها وموتها وجفافها ، وعتمتها وظلامها ، ومن يشرح الله صدره للإسلام ، ويمد له من نوره ، ليس قطعا كالقاسية قلوبهم من ذكر الله ، وشتان شتان بين هؤلاء وهؤلاء .

ويقول صاحب الأساس عن الآية التالية : أنها ذكرت « أربع خصائص لهذا القرآن ، كلها تشهد أنه كتاب رب العالمين .

أ ـ ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ فالقرآن أحسن الحديث ، فكلمته أحسن الكلم ، ومعانيه أحسن المعانى .... فالكلمة القرآنية فى محلها لا يمكن أن يكون غيرها أحسن منها ، ولا يمكن أن يحل غيرها محلها ، وهذا وحده معجزة ، فكيف إذا اجتمع مع ذلك حسن المعنى ، وحسن الجرس ، وحسن الأسلوب ، وأنواع أخرى من الحسن لا يحاط بها ؟ !!

ب ـ ﴿ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾ فهو يشبه بعضه بعضا فى الصدق والبيان ، والوعظ ، والحكمة ، والإعجاز والإخبار ، والتذكير والتبشير والإنذار ، فكل جزء منه تظهر فيه خصائص القرآن كله مع تعدد المواضيع وكثرتها وتنوعها ، وهذا وحده معجز ، وإلا فأى كتاب فى العالم يتحدث عن الإبداع بنفس الأسلوب الذى يتحدث فيه عن قضايا الإرث .

جـ ـ ﴿ مَّثَانِىَ ﴾ جمع مثنى بمعنى : مردد ومكرر ، لما ثنىّ من قصصه وأنبائه وأحكامه ، وأوامره ومعانيه ونواهيه ، ووعده ووعيده ، ومواعظه ، وقد رأينا فى هذا التفسير كيف أن بعض المعانى تثنى مرات ومرات ، وفى كل مرة تجد أسلوبا جديداً وروحا جديدة ، وعرضا جديداً بشكل عجيب مدهش ، غير مستطاع للبشر ، وهذه وحده مظهر من مظاهر الإعجاز فى هذا القرآن يدل على أنه من عند الله .

د ـ ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ إن التأثير الذى يحدثه القرآن فى القلوب المؤمنة المخبتة شىء عجيب ، وقد وصفته الآية هنا ، ووصفته آيات كثيرة فى القرآن ، إن مثل هذا التأثير لا يمكن أن يكون على مثل هذه الشاكلة ، لولا أنه من عند الله ، .. » .

فالذين يخشون ربهم ويتقونه ، ويعيشون فى حذر وخشية ، وفى تطلع ورجاء ، يتلقون هذا الذكر فى وجل وارتعاش ، وفى تأثر شديد تقشعر منه الجلود ثم تهدأ نفوسهم وتأنس قلوبهم بهذا الذكر، فتلين جلودهم وقلوبهم وتطمئن إلى ذكر الله ، وهى صورة حية حساسة ترسمها الكلمات فتكاد تشخص فيها الحركات ، فما ترتعش القلوب هكذا إلا حين تحركها أصبع الرحمن إلى الهدى والاستجابة والإشراق ، والله يعلم من حقيقة القلوب ما يجازيها عليه بالهدى أو بالضلال ، فهو يضله بما يعلمه من حقيقته المستقرة على الضلال التى لا تقبل الهدى ولا تجنح إليه ، بحال.

ثم يعرض ما ينتظر أهل الضلال يوم القيامة فى مشهد بائس فى موعد حصاد الأعمال ، والإنسان يقى وجهه عادة بيديه وجسمه ، فأما هنا فهو لا يملك أن يدفع عن نفسه النار بيديه ولا برجليه، فيدفعها بوجهه ، ويتقى به سوء العذاب ، مما يدل على الهول والشدة والاضطراب ، وفى زحمة هذا العذاب يتلقى التأنيب ، وتدفع إليه حصيلة حياته ، ويالها من حصيلة ، تقول لهم خزنة النار تقريعا وتوبيخا : ذوقوا وبال كسبكم .

ويلتفت السياق إلى الحديث عن المكذبين الذين يواجهون محمداً ﷺ ليعرض عليهم ما جرى للمكذبين قبلهم لعلهم يتداركون أنفسهم ، فقد كذب من قبلهم من القرون الماضية رسلهم ، فأتاهم العذاب من الجهة التى لا يحتسبون ، ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها ، فأذاقهم الله الذل والصغار كالمسخ والخسف ، والقتل والجلاء ، ونحو ذلك من عذاب الله فى الحياة الدنيا ، فافتضحوا عند الله وعند خلقه ، ولعذاب الآخرة أكبر من عذاب الدنيا ، ولو كانوا يعلمون الحقيقة كاملة لآمنوا .

ويخبر تعالى بقوله : قد بينا للناس فيه بضرب كل نوع من أنواع الأمثال ، ليتعظوا ، فإن المثل يقرِّب المعنى إلى الأذهان ، وهو قرآن بلسان عربى مبين لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس ، بل هو بيان ووضوح وبرهان ، وإنما جعله الله تعالى كذلك وأنزله بذلك لعلهم يحذرون ما فيه من الوعيد ، ويعملون بما فيه من الوعد .

قال النسفى عن الآية التالية : « مثل الكافر ومعبوديه بعبد اشترك فيه شركاء بينهم تنازع واختلاف ، وكل واحد منهم يدعى أنه عبده ، فهم يتجاذبونه ، ويتعاورونه فى مهن شتى ، وهو متحير لا يدرى أيهم يرضى بخدمته ، وعلى أيهم يعتمد فى حاجاته ، وممن يطلب رزقه ، وممن يلتمس رفقه ، فهمه مشاع وقلبه أوزاع ، ومثل المؤمن بعبد له سيد واحد فهمه واحد وقلبه مجتمع) .

وقال صاحب الظلال : « وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك فى جميع الأحوال ، فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذى يقطع الرحلة على هذه الأرض على هدى ؛ لأن بصره أبداً معلق بنجم واحد على الأفق فلا يلتوى به الطريق ، ولأنه يعرف مصدراً واحداً للحياة والقوة والرزق ، ومصدراً واحداً للنفع والضر ، ومصدراً واحداً للمنح والمنع ، فتستقيم خطاه إلى هذا المصدر الواحد ... ويخدم سيداً واحداً يعرف ماذا يرضيه فيفعله ، وماذا يغضبه فيتقيه .. ويعقب على هذا المثل الناطق الموحى ، بالحمد لله الذى اختار لعباده الراحة والأمن والطمأنينة والاستقامة والاستقرار ، وهم مع هذا ينحرفون ، وأكثرهم لا يعلمون .

ويعقب على هذا بأن الموت نهاية كل حى ، ولا يتفرد بالبقاء إلا الله ، والموت ليس نهاية المطاف ، فيوم القيامة يختصم العباد فيما كان بينهم من خلاف ، ويجىء رسول الله ﷺ أمام ربه ، ويوقف القوم للخصومة فيما كانوا يقولونه ويأتونه ، ويواجهون به ما أنزل الله إليهم من الهدى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المؤمن يسير فى الحياة على نور وبصيرة من ربه تعالى .

٢ ـ القرآن الكريم يتلقاه المؤمنون فيخشعون ويتأثرون ، ويتلقاه الجاحدون والظالمون فلا يتأثرون ولا يستجيبون .

٣ ـ المؤمن ثابت القدمين على الأرض ، متطلع إلى إله واحد فى السماء .

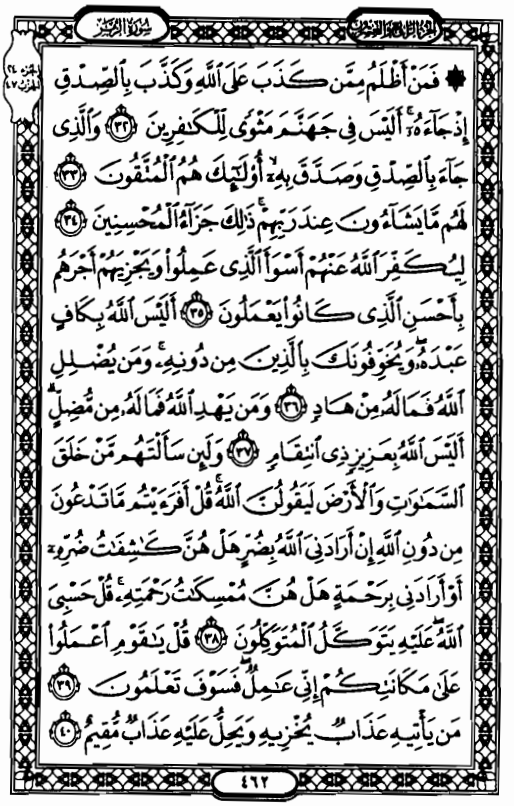
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ
إِذْ جَاءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى
جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾
لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾
لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم
بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ
عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ
ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ
أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ
أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ
ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟
عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾
مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾
٤٦٢

معانى الكلمات :

مثوى : مكان .

بعزيز : بقادر .

أفرأيتم : أخبرونى .

كاشفات ضره : تدفع عنه السوء .

ممسكات رحمته : تمنع رحمته .

مكانتكم : حالتكم وعداوتكم للدين .

يخزيه : يذله .

مقيم : دائم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم جزاء الكاذبين على الله ورسوله ﷺ ، وجزاء المحسنين .

٢ ـ أن نؤمن بكفاية الله لعباده المؤمنين .

٣ ـ أن نتعرف على سذاجة عقول الكافرين ، ووعيدهم بالعذاب المقيم .

المحتوى التربوى :

بين السياق من تكون بينهم الخصومة، فيجىء الرسول ﷺ أمام ربه ويوقف القوم للخصومة فيما كانوا يقولونه ويأتونه ، ويواجهون به ما أنزل الله إليهم من الهدى ، ويكون السؤال للتقرير فليس هنالك من هو أظلم ممن كذب على الله فزعم أن له بنات وأنه له شركاء وكذب بالصدق الذى جاء به رسوله ، فلم يصدق بكلمة التوحيد ، إنه الكفر وفى جهنم مثوى للكافرين ، على سبيل التقرير الذى يرد فى صورة سؤال الزيادة والإيضاح والتوكيد .

هذا طرف من الخصومة فأما الطرف الآخر فهو الذى جاء بالصدق من عند الله ، وصدق به فبلغه عن عقيدة واقتناع ، ويشترك مع رسول الله ﷺ فى هذه الصفة كل الرسل قبله ، كما يشاركه

فيها كل من دعا إلى هذا الصدق وهو مقتنع به مؤمن بأنه الحق ، ويشارك قلبه لسانه فيما يدعو إليه ، وهؤلاء هم المتقون .

ويتوسع فى عرض صفة المتقين هؤلاء وما أعده لهم من جزاء ، فلهم كل ما يخطر للنفس المؤمنة من رغائب ، ويقرر أن هذا لهم عند ربهم ، فهو حقهم الذى لا يخيب ولا يضيع لهم الخير والكرامة ، وفضل يزيد على العدل يعاملهم به ، متفضلا محسنا ، فالعدل أن تحسب الحسنات وتحسب السيئات ثم يكون الجزاء ، والفضل هو هذا الذى يتجلى به الله على عباده المتقين هؤلاء أن يكفر عنهم أسوأ أعمالهم ، فلا يبقى لها حساب فى ميزانهم ، وأن يجزيهم أجرهم بحساب الأحسن فيما كانوا يعملون ، فتزيد حسناتهم وتعلو وترجح فى الميزان ، إنه فضل الله يؤتيه من يشاء كتبه الله على نفسه بوعده فهو واقع يطمئن إليه المتقون المحسنون .

قال الفخر الرازى رحمه الله « إنه جرت العادة أن المبطلين يخوفون المحقين بالتخويفات الكثيرة ، فحسم الله مادة هذه الشبهة بقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ وذكره بلفظ الاستفهام ، والمراد تقرير ذلك فى النفوس والأمر كذلك ؛ لأنه ثبت أنه عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات ، غنى عن كل الحاجات ، فهو تعالى عالم حاجات العباد ، وقادر على دفعها وإبدالها بالخيرات والراحات ، وهو ليس بخيلا ولا محتاجا حتى يمنعه بخله وحاجته عن إعطاء ذلك المراد ، وإذا ثبت هذا كان الظاهر أنه سبحانه يدفع ويزيل البليات ، ويوصل إليه كل المرادات ، فلهذا قال : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾، ولما ذكر المقدمة رتب عليها النتيجة المطلوبة ... فلما ثبت أن الله كاف عبده كان التخويف بغير الله عبثا وباطلا ... ولما أطنب فى شرح الوعيد والوعد ، والترهيب والترغيب ختم الكلام بخاتمة هى الفصل الحق فقال : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾ ويعنى هذا الفضل لا ينفع والبينات إلا إذا خص الله العبد بالهداية والتوفيق ، وقوله : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ تهديد للكفار » .

فالله عز وجل منيع الجناب ، لا يضام من استند إلى جنابه ، ولجأ إلى بابه ؟! فإنه العزيز الذى لا أعز منه ، ولا أشد منه انتقاما ممن كفر به وأشرك ، وعاند رسوله ﷺ ، وفى الآية وعد للمؤمنين بأنه ينتقم لهم من الكافرين ، وينصرهم عليهم .

ولئن سألت هؤلاء الضلال الذين يخوفونك بالذين من دونه ، وأقمت عليهم دليلا من أنفسهم ، فقلت من خلق السموات والأرض ؟ لم يثبتوا لآلهتهم من خلقها شيئا وليقولن الله الذى خلقها وحده ، ولما تقرر فى الفطر والعقول من استيقان ذلك ، ولوضوح الدليل عليه ، قل تبكيتا لهم : أخبرونى أرأيتم ما تعبدون من دون الله ، إن أرادنى الله بأى ضر كان هل هن كاشفات ضره بإزالته بالكلية أو بتخفيفه من حال إلى حال ؟ أو أرادنى برحمة يوصل إلىّ بها منفعة

فى دينى أو دنياى ، هل هن ممسكات رحمته ومانعاتها عنى ؟ سيقولون : لا يكشفون الضر ولا يمسكون الرحمة .

قل لهم بعد ما تبين الدليل القاطع على أنه وحده المعبود ، وأنه الخالق للمخلوقات ، النافع الضار وحده ، وأن غيره عاجز من كل وجه عن الخلق والنفع والضر ، مستجلباً كفايته مستدفعا مكرهم وكيدهم : حسبى الله ، عليه يعتمد المعتمدون فى جلب مصالحهم ودفع مضارهم ، فالذى بيده ـ وحده ـ الكفاية هو حسبى ، سيكفينى كل ما أهمنى وما لا أهتم به .

وفى طلاقة اليقين قل : يا قوم اعملوا على حالكم التى أنتم عليها وجهتكم من العداوة التى تمكنتم منها وطريقتكم ، وهذا تهديد ووعيد فإنى عامل على مكانتى وطريقتى ومنهجى ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويذله فى الدنيا ، ويحل عليه عذاب دائم مستمر لا محيد له عنه ، وذلك يوم القيامة، وفى الآية أمر بالتوعد بكونه مقصوراً عليهم ، غالبا عليهم فى الدنيا والآخرة ؛ لأنهم إذا أتاهم الخزى والعذاب ، فذاك عزه وغلبته ، من حيث إن الغلبة تتم له بعز عزيز ، يعز أولياءه ، ويذل أعداءه .

يقول صاحب الظلال:« هذه الآيات الأربع تصور منطق الإيمان الصحيح فى بساطته وقوته ، ووضوحه ، وعمته ، كما هو فى قلب كل مؤمن برسالة ، وكل قائم بدعوة ، وهى وحدها دستوره الذى يغنيه ويكفيه ، ويكشف له الطريق الواصل الثابت المستقيم ... وهى تصور حقيقة المعركة بين الداعية إلى الحق ، وكل ما فى الأرض من قوى مضادة ، كما تصور الثقة واليقين والطمأنينة فى القلب المؤمن ، بعد وزن هذه القوى بميزانها الصحيح ... فمن ذا يخيفه ، وماذا يخيفه إذا كان الله معه؟ وإذا كان هو قد اتخذ مقام العبودية وقام بحق هذا المقام؟ ومن ذا يشك فى كفاية الله لعبده ، وهو القوى القاهر فوق عباده ... فكيف يخاف وإرادة الله هى النافذة ومشيئته هى الغالبة ، وهو الذى يقضى فى العباد قضاءه فى ذوات أنفسهم ، وفى حركات قلوبهم ومشاعرهم ... فما الذى يخشاه داعية إلى الله ؟ ما الذى يخشاه وما الذى يرجوه ؟ وليس أحد بكاشف الضر عنه ؟ وليس أحد بمانع الرحمة عنه ؟ وما الذى يقلقه أو يخيفه أو يصده عن طريقه ؟ والله صاحب هذه الدعوة التى يحملها الرسل ويتولاها الدعاة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الترغيب فى الصدق فى الاعتقادات والأقوال والأعمال .

٢ ـ الله عز وجل يجازى كلا بما يستحق ، وإنه لينتقم ممن يستحق الانتقام .

٣ ـ وجوب التوكل على الله واعتقاد كفايته لأوليائه .

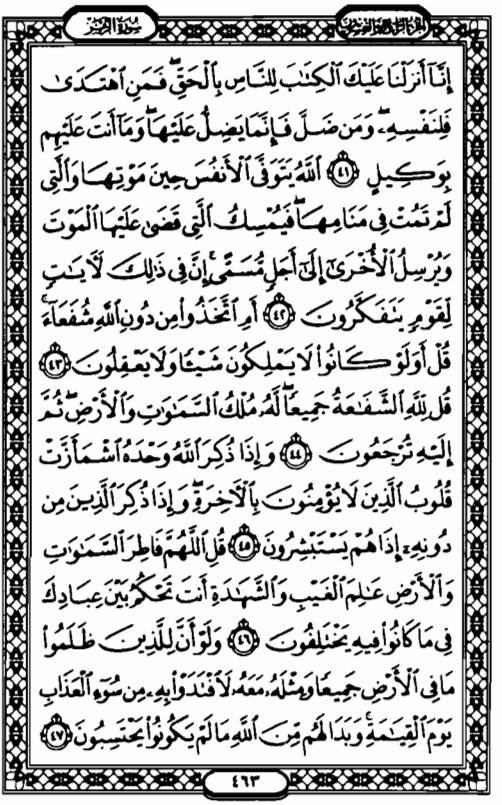
إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ
فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم
بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى
لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ
وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ
قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾
قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ
إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ
قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن
دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ
فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾
٤٦٣

معانى الكلمات :

لآيات : لعلامات .

اشمأزت : نفرت وأعرضت .

من دونه : من غيره .

فاطر : مبدع وخالق .

الغيب والشهادة : السر والعلانية .

بدا لهم : ظهر لهم .

يحتسبون : يتوقعون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مظاهر قدرة الله تعالى فى الموت والحياة .

٢ ـ أن نعلم سفه المشركين وضلالهم فى عصيانهم عند سماع التوحيد ، وفرحهم عند سماع الشرك .

٣ ـ أن نقف على حال المشركين فى يوم القيامة .

المحتوى التربوى :

لما أطنب الله تعالى فى فساد مذاهب المشركين تارة بالدلائل والبينات ، وتارة بضرب الأمثال ، وتارة بذكر الوعد والوعيد أردفه بكلام يزيل ذلك الخوف العظيم عن قلب الرسول ﷺ ، فقال : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ الكامل الشريف لنفع الناس ولاهتدائهم به ، وجعلنا إنزاله مقرونا بالحق وهو المعجز الذى يدل على أنه من عند الله فمن اهتدى فنفعه يعود إليه ، ومن ضل فضير ضلاله يعود إليه ، وأنت لست مأموراً بأن تحملهم على الإيمان على سبيل القهر بل القبول وعدمه مفوض إليهم ، وذلك لتسلية الرسول فى إصرارهم على الكفر.

والوكيل عليهم هو الله،وهم فى قبضته فى صحوهم ونومهم وفى كل حالة من حالاتهم ، وهو يتصرف بهم كما يشاء،والله يستوفى الآجال للأنفس التى تموت،وهو يتوفاها كذلك فى منامها ـ وإن لم تمت بعد ـ ولكنها فى النوم متوفاة إلى حين ، فالتى حان أجلها يمسكها فلا تستيقظ، والتى لم يحن أجلها بعد يرسلها فتصحو ، إلى أن يحل أجلها المسمى ، فالأنفس فى قبضته دائما فى صحوها ونومها ، وصاحب هذه القدرة العظيمة هو صاحب الحق المطلق فى الطاعة والعبادة ، ولا تنبغى العبادة إلا له ، وفى هذا علامات على قدرة الله وعلمه لقوم يحيلون فى ذلك أفكارهم ويعتبرون أنهم هكذا فى قبضة الله دائما ، وهو الوكيل عليهم ، ولست عليهم بوكيل ، وإنهم إن يهتدوا فلأنفسهم وإن يضلوا فعليها ، وإنهم محاسبون إذن وليسوا بمتروكين ، فماذا يرجون إذن للفكاك والخلاص ؟ ! وهو سؤال للتهكم والسخرية من زعمهم أنهم يعبدون تماثيل الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى : ﴿ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ ؟ ، يعقبه تقرير جازم بأن لله الشفاعة جميعاً ، فهو الذى يأذن بها لمن يشاء على يد من شاء ، فهل مما يؤهلهم للشفاعة أن يتخذوا من دون الله شركاء ؟ !

والله سبحانه له ملك السموات والأرض ، فليس هنالك خارج على إرادته فى هذا الملك ، ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (البقرة : ٢٨) فلا مهرب ولا مفر من الرجوع إليه وحده فى نهاية المطاف .

يقول صاحب الظلال : « وفى هذا الموقف الذى يتفرد فيه الله سبحانه بالملك والقهر يعرض كيف هم ينفرون من كلمة التوحيد ، ويهشون لكلمة الشرك ، الذى ينكره كل ما حولهم فى الوجود ، والآية تصف واقعة حال على عهد النبى ﷺ حين كان المشركون يهشون ويبشون إذا ذكرت آلهتهم ، وينقبضون وينفرون إذا ذكرت كلمة التوحيد ، ولكنها تصف حالة نفسية تتكرر فى شتى البيئات والأزمان ، فمن الناس من تشمئز قلوبهم وتنقبض نفوسهم كلما دعوا إلى الله وحده إلها ، وإلى شريعة الله وحدها قانونا ، وإلى منهج الله وحده نظاما ، حتى إذا ذكرت المناهج الأرضية والنظم الأرضية والشرائع الأرضية هشوا وبشوا ورحبوا بالحديث ، وفتحوا صدورهم للأخذ والرد ، هؤلاء بعينهم الذى يصور الله نموذجا منهم فى هذه الآية ، وهم بذاتهم فى كل زمان ومكان ، وهم المسوخو الفطرة ، المنحرفو الطبيعة ، الضالون المضلون ، مهما تنوعت البيئات والأزمنة ، ومهما تنوعت الأجناس والأقوام » .

والجواب على هذا المسخ والانحراف والضلال هو ما لقنه الله لرسوله ﷺ فى مواجهة مثل هذه الحال:قال اللهم يا فاطر السموات والأرض ويا عالم السر والعلانية ، أنت تقضى بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون من الهدى والضلال وتفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم .

ثم يحدثنا الله عز وجل عن موقف الكافرين يوم الفصل ، فلو أن هؤلاء الظالمين بشركهم وهو الظلم العظيم لو أن لهؤلاء ما فى الأرض جميعا مما يحرصون عليه وينأون عن الإسلام

اعتزازا به ، ومثله معه لقدموه فدية مما يرون من سوء العذاب يوم القيامة ، ولا يفصح التعبير عما بدا لهم من الله ولم يكونوا يتوقعونه لا يوضح عنه ، ولكنه هكذا هائل مذهل مخيف فهو الله ، الله الذى يبدو منه لهؤلاء الضعاف مالا يتوقعون ، هكذا بلا تعريف ولا تحديد ، وعلى المسلم أن يعرف قلبه طريق الخوف الذى يتورع به عن الآثام ظاهراً وباطنا ، ويعجزه عن محارم الله .

يقول ابن القيم فى المدارج عن الخوف : « يعنى الخروج عن سكون الأمن باستحضار ما أخبر الله له من الوعد والوعيد ، قال صاحب المنازل :«وهو على ثلاث درجات . **الدرجة الأولى**: الخوف من العقوبة ، وهو الخوف الذى يصح به الإيمان ، وهو خوف العامة ، وهو يتولد من تصديق الوعيد وذكر الجناية ، ومراقبة العامة » ، والخوف مسبوق بالشعور والعلم فمحال خوف الإنسان مما لا شعور له به ، وله متعلقان : أحدهما نفس المكروه لمحذور وقوعه . **والثانى** : السبب والطريق المفضى إليه ، فعلى قدر شعوره بإفضاء السبب إلى المخوف ، وبقدر المخوف : يكون خوفه ، وما نقص من شعوره بأحد هذين نقص من خوفه بحسبه ، فمن لم يعتقد أن سبب كذا يفضى إلى محذور كذا : لم من ذلك السبب ، ومن اعتقد أنه يفضى إلى مكروه ما ، ولم يعرف قدره لم يخف منه ذلك الخوف ، فإذا عرف قدر المخوف ، وتيقن إفضاء السبب إليه : حصل له الخوف هذا معنى تولده من تصديق الوعيد وذكر الجناية ومراقبة العامة .

قال:« **الدرجة الثانية**: خوف المكر فى جريان الأنفاس المستغرقة فى اليقظة ، المشوبة بالحلاوة ، يريد : أن من حصلت له اليقظة بلا غفلة ، واستغرقت أنفاسه فيها ؛ استحلى ذلك فإنه لا أحلى من الحضور فى اليقظة ، فإنه ينبغى أن يخاف المكر وأن يسلب هذا الحضور واليقظة والحلاوة ، فكم من مغبوط بحاله انعكس عليه الحال ، ورجع من حسن المعاملة إلى قبيح الأعمال .

قال : « **الدرجة الثالثة** : درجة الخاصة ، وليس فى مقام أهل الخصوص وحشة الخوف إلا هيبة الجلال وهى أقصى درجة يشار إليها فى غاية الخوف ، ... وأهل الخصوص أهل وصول إلى الله وقرب منه ، فليس خوفهم خوف وحشة ... ، وهذا بخلاف هيبة الجلال ، فإنها متعلقة بذاته تعالى وصفاته ، وكلما كان عبده به أعرف وإليه أقرب ،كانت هيبته وإجلاله فى قلبه أعظم، وهى أعلى من درجة خوف العامة » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ كل من دعا إلى الصدق واتبعه وآمن به ، فله عند الله تعالى أعظم الجزاء .

٢ ـ من فضل الله تعالى على عباده المتقين أنه يكفر عنهم أسوأ أعمالهم ، ويجزيهم أجرهم بأحسن الأعمال وأفضلها .

٣ ـ أعداء المسلمين أعداء عقيدة ينفرون من كلمة التوحيد ، لا يجيبون إلا من اتبع طريقتهم .

٤ ـ الخوف من الله والاستعداد ليوم القيامة طريق العمل .

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ
نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ
عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ
وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ
وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ
لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾
۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن
رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ
﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ
ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ
إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ
بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ
عَلَىٰ مَا فَرَّطتُّ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾
٤٦٤

معانى الكلمات :

بدا لهم : ظهر لهم .

حاق بهم : أحاط بهم .

فتنة : اختبار وامتحان .

يبسط : يوسع .

يقدر : يضيق .

أسرفوا : أكثروا من الذنوب .

تقنطوا : تيأسوا .

جنب الله : حق الله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على تناقض أهل الكفر والجهل والضلال .

٢ ـ أن نعلم سنن التربية الإلهية ، وحكم التدبير لشؤون الخلق .

٣ ـ أن نعرف فضل الله ورحمته على عباده،وبيان الأخذ بالعزائم وترك الرخص لغير ضرورة.

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فى بيان أحوال الظالمين المفزعة يوم يرجعون للحكم بينهم يوم القيامة ، فالموقف يزداد سوءاً حين ينكشف لهم قبح ما فعلوا ، وحين يحيط بهم ما كانوا به يستهزئون من الوعيد والنذير ، وهم فى ذلك الموقف الأليم الرعيب .

وبعد هذا المشهد المعترض لبيان حالهم يوم يرجعون إلى الله الذى به يشركون ، والذى تشمئز قلوبهم حين يذكر وحده ، وتستبشر حينما تذكر آلهتهم المدعاة ، بعد هذا يعود إلى تصوير حالهم العجيب ، فهم ينكرون وحدانية الله ، فأما حين يصيبهم الضر فهم لا يتوجهون إلا له وحده ضارعين منيبين ، حتى إذا تفضل عليهم وأنعم ، راحوا يتبجحون وينكرون .

قال صاحب الظلال : « والآية تصور نموذجًا مكررًا للإنسان ، ما لم تهتد فطرته إلى الحق ، وترجع إلى ربها الواحد ، وتعرف الطريق إليه ، فلا تضل عنه فى السراء والضراء .

إن الضر يسقط عن الفطرة ركام الأهواء ، والشهوات ، ويعريها من العوامل المصطنعة التى تحجب عنها الحق الكامن فيها وفى ضمير هذا الوجود،فعندئذ نرى الله ونعرفه ونتجه إليه وحده، حتى إذا مرت الشدة وجاء الرخاء، نسى هذا الإنسان ما قاله فى الضراء ، وانحرفت فطرته بتأثير الأهواء ، وقال عن النعمة والرزق والفضل ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ قالها قارون ، وقالها كل مخدوع بعلم أو صفة أو صنعته حيلة يعلل بها ما اتفق له من مال أو سلطان ، غافلا عن مصدر النعمة ، وواهب العلم والقدرة ، ومسبب الأسباب ، ومقدر الأرزاق ، ﴿ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ هى فتنة للاختبار والامتحان ؛ ليتبين إن كان سيشكر أو سيكفر ، وإن كان سيصلح بها أو سيفسد ، وإن كان سيعرف الطريق أن يجنح إلى الضلال » .

والقرآن ـ رحمة بالعباد ـ يكشف لهم عن السر ، وينبههم إلى الخطر ويحذرهم الفتنة ، ويلمس قلوبهم يعرض مصارع الغابرين قبلهم ، وقد قال هذه المقالة وهو قوله : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ الذين من قبلهم كقارون مثلا ، فانتهت بهم إلى السوء والوبال ولم يغن عنهم علمهم ولا مالهم ولا قوتهم شيئا ، وهؤلاء سيصيبهم ما أصاب الغابرين ، فسنة الله لا تتبدل ، والله لا يعجزه خلقه الضعاف المهازيل ، أولم يعلموا عن طريق ما يشاهدونه أن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ، سواء كان صالحا أم طالحا ، فرزقه مشترك بين البرية ، والإيمان والعمل الصالح يخص به خير البرية ، وفى بسط الرزق وقبضه لعلامات لأهل الإيمان ، لعلمهم أن مرجع ذلك عائد إلى الحكمة والرحمة ، وأنه أعلم بحال عبيده ، فقد يضيق عليهم الرزق لطفاً بهم ، لأنه لو بسطه لبغوا فى الأرض ، فيكون تعالى مراعيا فى ذلك صلاح دينهم الذى هو مادة سعادتهم وفلاحهم والله أعلم .

ولما صور الله الحال المفزعة التى يكون عليها الظالمون يوم القيامة، عاد بفتح أبواب رحمته على مصاريعها بالتوبة، ويطمع فى رحمته ومغفرته أهل المعاصى مهما يكونوا قد أسرفوا فى المعصية ، ويدعهم إلى الأوبة إليه كائنة ما كانت ، وإنها الدعوة للأوبه .

دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين فى تيه الضلال ، دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله ، إن الله رحيم بعباده ، وهو يعلم ضعفهم وعجزهم ، ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيانهم ، ومن خارجه ، ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد ، ويأخذ عليهم كل طريق ويعلم أن بناء هذاالمخلوق الإنسانى بنأواه وأن مسكين سرعان ما يسقط إذا أفلت من يده الحبل ويعلم الله ـ سبحانه ـ عن هذا المخلوق كل هذا فيمد له فى العون ، ويوسع له فى الرحمة ، ولا يأخذه بمعصيته حتى يهيئ له جميع الوسائل ليصلح خطأه ويقيم خطأه على الصراط ، وبعد أن يلج فى المعصية ويسرف فى الذنب ، ويحسب أنه قد طرد وانتهى أمره ، ولم يعد ولا يستقبل ، فى هذه اللحظة لحظة اليأس والقنوط يسمع نداء الرحمة الندى اللطيف .

قال الفخر الرازى : « اعلم أن هذه الآية تدل على الرحمة من وجوه :

الأول : إنه سمى الذنب بالعبد والعبودية مفسرة بالحاجة والذلة والمسكنة ، واللائق بالرحيم الكريم إفاضة الخير والرحمة على المسكين المحتاج .

الثانى : إنه تعالى أضافهم إلى نفسه بياء الإضافة فقال : ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ ﴾ وشرف الإضافة إليه يفيد الأمن من العذاب .

الثالث : إنه تعالى قال : ﴿ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ومعناه أن ضرر تلك الذنوب ما عاد إليه بل هو عائد إليهم ...

الرابع : إنه قال : ﴿ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ ونهاهم عن القنوط فيكون هذا أمراً بالرجاء والكريم إذا أمر بالرجاء فلا يليق به إلا الكرم .

الخامس : إنه تعالى قال أولا : ﴿ يَٰعِبَادِىَ ﴾ وكان الأليق أن يقول لا تقنطوا من رحمتى لكنه ترك هذا اللفظ وقال : ﴿ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ لأن قولنا : الله أعظم أسماء الله وأجلها ، فالرحمة المضافة إليه يجب أن تكون أعظم أنواع الرحمة والفضل .... » .

فقل يا أيها الرسول أنت ومن قام مقامك من الدعاة لدين الله ، مخبراً للعباد عن ربهم ألا ييأسوا من رحمة الله ، فهى دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها ، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر ، فارجعوا إليه وتوبوا واستسلموا له بالانقياد لشرعه والتسليم لقدره قبل نزول العقاب وحلول النقمة ثم لا تنصرون .

وكأنه قيل : ما هى الإنابة والإسلام ، وما جزئياتها وأعمالها ؟ فأجاب تعالى : ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ مما أمركم من الأعمال الباطنة ؛ كمحبة الله وخشيته ، وخوفه ورجائه ، والنصح لعباده ، ومحبة الخير لهم ، وترك ما يضاد ذلك ، ومن الأعمال الظاهرة ، كالصلاة والزكاة والصيام والحج والصدقة ونحو ذلك .

مما أمر الله به ، وهو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا ، فاتبعوه قبل أن يفجأكم العذاب وأنتم غافلون .

حذرهم ألا يستمروا على غفلتهم حتى يأتيهم يوم يندمون فيه ، ولا تنفع الندامة ، لئلا تقول نفس من الأنفس يا حسرتى على ما قصرت فى أمر الله أو فى طاعة الله ، وإنه كنت لمن المستهزئين

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الغرور والكبر يورد المهالك ، ويؤذى صاحبه يوم القيامة .

٢ ـ بيان فضل الله ورحمته على عباده بقبول التوبة والرجاء لله مطلوب .

٣ ـ استنهاض الهمم فى امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه قبل حلول العذاب .

سورة الزمر
أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾
أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ
مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا
وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى
جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟
بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ
خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا
ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ
أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ
فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ
وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ
مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾
٤٦٥

معانى الكلمات :

كرة : رجعة إلى الدنيا .

مثوى : مأوى ومسكن .

بمفازتهم : بفوزهم بالجنة ونعيمها .

وكيل : قائم بتدبير كل شىء .

مقاليد : مفاتيح أو خزائن .

ليحبطن : ليبطلن .

مطويات بيمينه : مجموعات فى يمينه .

سبحان الله : تقدس وتنزه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم فضل التقوى والإحسان وفضل المتقين والمحسنين .

٢ ـ أن نتعرف على أحوال الكافرين والمتكبرين وأحوال أهل التقوى .

٣ ـ أن نوقن أن الله هو المالك المتصرف فى كل شىء.

المحتوى التربوى :

يستمر السياق فى بيان ما سوف يكون يوم القيامة حثا للنفوس على أن تشمر عن ساعد الطاعة ، قبل أن يأتى يوم الحساب فتتعلل بقولها : إن الله كتب علىّ الضلال ، ولو كتب علىّ الهدى لاهتديت واتقيت ، وهى علالة لا أصل لها ، فالفرصة ها هى ذى سانحة ، ووسائل الهدى ما تزال حاضرة ، وباب التوبة ها هو ذا مفتوح ، أن تقول حين ترى العذاب لو أن لى رجعة إلى الدنيا ، وهى أمنية لا تنال ، فإذا انتهت هذه الحياة فلا كرة ولا رجوع ، وها أنتم أولاء فى دار العمل ، وهى فرصة واحدة إذا انقضت لا تعود ، وستسألون عنها مع التبكيت والترذيل ، فقد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتى فى الدار الدنيا ، وقامت حججى عليك

فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها ، وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها ، وآثرت الضلالة على الهدى ، واشتغلت بضد ما أمرتك به ، فإنما جاء العذر من قبلك فلا عذر لك .

وبعد هذا الرد يعود السياق ليعرض علينا الحال يوم القيامة ؛ لنتدارك أمرنا فى الدنيا ونكون من المتقين ، فها هو المصير الأخير ؛ فريق مسود الوجوه من الخزى ، ومن الكمد ، ومن لفح الجحيم ، هو فريق المتكبرين فى هذه الأرض ، الذين دعوا إلى الله ، وظلت الدعوة قائمة حتى بعد الإسراف فى المعصية ، فلم يلبوا هاتف النجاة ، فهم اليوم فى خزى تسود له الوجوه ، وفريق ناج فائز لا يمسه السوء ولا يخالطه الحزن هو فريق المتقين ؛ الذين عاشوا فى حذر من الآخرة ، وفى طمع فى رحمة الله ، فهم اليوم يجدون النجاة والفوز والأمن والسلامة : ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ، ومن شاء بعد هذا فليلب النداء إلى الرحمة الندية الظليلة وراء الباب المفتوح ، ومن شاء فليبق فى إسرافه وفى شروره حتى يأخذهم العذاب وهم لا يشعرون . ويعرض السياق حقيقة التوحيد من جانب وحدانية الخالق الذى خلق كل شىء ، المالك المتصرف فى كل شىء ، فتبدو دعوة المشركين للنبى ﷺ إلى مشاركتهم عبادة آلهتهم فى مقابل أن يشاركوه عبادة إلهة ، تبدو هذه الدعوة مستغربة ، والله هو خالق كل شئ ، وهو المتصرف فى ملكوت السموات والأرض بلا شريك ، فأنى يعبد معه غيره ، وله وحده مفاتيح السموات والأرض ، وهو مالك أمرهما ، وهذا يقتضى أن تمتلئ القلوب له إجلالا وإكراما .

أما الذين كفروا بآيات الله الدالة على الحق واليقين والصراط المستقيم ، وأولئك هم الذين خسروا ما به تصلح القلوب من التأله والإخلاص لله ، وما به تصلح به الجوارح من طاعة الله ، وتعوضوا عن ذلك كل مفسد للقلوب والأبدان ، وخسروا جنات النعيم ، وتعرضوا عنها بالعذاب الأليم ، وأنت أيها الرسول قل لهؤلاء الجاهلين الذين دعوك إلى عبادة غير الله ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ هذا الأمر صدر من جهلكم ، وإلا فلو كان لكم علم بأن الله تعالى الكامل من جميع الوجوه ، مسدى جميع النعم ، هو المستحق للعبادة ، دون من كان ناقصا من كل وجه ، لا ينفع ولا يضر لم تأمرونى بذلك .

وذلك لأن الشرك بالله محبط للأعمال ، مفسد للأحوال فهو يحذر منه ، ويبدأ أول ما يبدأ بالأنبياء والمرسلين ، وهم ـ صلوات الله عليهم ـ لا يتطرق إلى قلوبهم طائف الشرك أبداً ، ولكن التحذير هنا ينبه سواهم من أقوامهم إلى تفرد ذات الله سبحانه فى مقام العبادة ، وتوحد البشر فى مقام العبودية ، بما فيهم الأنبياء والمرسلون ، ويختم هذا التحذير من الشرك بالأمر بالتوحيد ؛

توحيد العبادة والشكر على الهدى واليقين ، وعلى آلاء الله التى تغمر عباده ، ويعجزون عن إحصائها وهم فيها مغمورون .

ثم يبين السياق أن هؤلاء ما قدروا الله حق قدره ، وهم يشركون به بعض خلقه ، وهم لا يعبدونه حق عبادته ، وهم لا يدركون وحدانيته وعظمته ، وهم لا يستشعرون جلاله وقوته ، ويكشف لهم عن جانب من عظمة الله وقوته وقدرته الطليقة التى لا تتقيد بشكل ولا تتحيز فى حيز ، ولا تتحدد بحدود ، فالأرضون السبع كلها مع عظمهن وبسطتهن لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته ، والسموات مطويات كطى السجل بيمينه من غير تكييف له ولا تشبيه ولا تحريف ، ولا تبديل ولا تغيير . يقول ابن القيم : « إنهم لو عظموا الله وعرفوه حق عظمته وأطاعوه وشكروه ، فطاعته سبحانه واجتناب معاصيه والحياء منه بحسب وقاره فى القلب ، ولهذا قال بعض السلف : ليعظم وقار الله فى قلب أحدكم أن يذكره عندما يستحى من ذكره ، فيقرن اسمه به كما تقول :قبح الله الكلب والخنزير والنتن ونحو ذلك ، فهذا من وقار الله .

ومن وقاره ألا تعدل به شيئا من خلقه لا فى اللفظ ، بحيث تقول : والله وحياتك ، مالى إلا الله وأنت ، وما شاء الله وشئتَ ، ولا فى الحب والتعظيم والإجلال ، ولا فى الطاعة فتطيع المخلوق فى أمره ونهيه كما تطيع الله ، بل أعظم كما عليه أكثر الظلمة والفجرة ، ولا فى الخوف والرجاء ، ويجعله أهون الناظرين إليه ، ولا يستهين بحقه ، ويقول : هو مبنى على المسامحة ، ولا يجعله على الفضلة ، ويقدم حق المخلوق عليه ، ولا يكون الله ورسوله فى حدٍّ وناحية ، والناس فى ناحية وحد ، فيكون فى الحد والشق الذى فيه الناس دون الشق الذى فيه الله ورسوله ، ولا يعطى المخلوق فى مخاطبته قلبه وليه ، ويعطى الله فى خدمته بدَنه ولسانه دون قلبه وروحه ، ولا يجعل مراد نفسه مقدما على مراد ربه ، فهذا كله من عدم وقار الله فى القلب » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ يوم القيامة لا تنفع حسرة ولا ندامة ، فاعمل فى دار العمل .

٢ ـ ليست سعة الأرزاق دليلا على رضا الله ، ولا ضيق الرزق دليلا على غضب الله تعالى ، وإنما الأرزاق بيد الله، يقسمها وفق مشيئته وحكمته .

٣ ـ بيد الله عز وجل كل شىء فلا يصح أن يطلب شىء من غيره أبداً ، أو يعدل به شىء من خلقه .

معانى الكلمات :

الصور : القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل يوم القيامة .

فصعق : فمات .

وأشرقت الأرض:أضاءت أرض المحشر .

وفيت : أعطيت .

زمرا : جماعات متتابعة .

وينذرونكم : ويخوفونكم .

مثوى : مقام ومأوى .

نتبوأ : ننزل ونتصرف فى ملكها .

سورة الزمر — الجزء الرابع والعشرون

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ
إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ
(٦٨) وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ
بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
(٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠)
وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا
فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ
هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ
(٧١) قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى
ٱلْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى
ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ
خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ (٧٣)
وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ
نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ (٧٤)

٤٦٦

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على أرض الموقف وكيف يكون الحساب .

٢ ـ أن نعلم نهاية المتكبرين وسوء مصيرهم .

٣ ـ أن نؤمن بيوم القيامة وما فيه من أهوال وشدائد ، وسوق إلى النار وسوق إلى الجنة .

المحتوى التربوى :

بعد ما بين السياق أن الله وحده هو الوكيل ، ولأنه هو الخالق ، ولأنه هو المالك ، ولأن الأرضين قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه يوم القيامة ، ومن ثم فإنه وحده المستحق للعبادة ، والمستحق للشكر ، وأن من يشرك به خاسر وحابط عمله ، وكون الله عز وجل هو الوكيل فإنه سيحاسب من رفض هدايته ورفض كتابه ، ومن ثم يعرض لنا السياق مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، تذكر فيه كيف سيفعل الله عز وجل بالمتقين الذين اهتدوا بكتابه ، والكافرين الذين رفضوا كتابه ، ويبدأ بذكر النفخة الأولى ، وينتهى بانتهاء الموقف ، وسوق أهل النار إلى النار ، وأهل الجنة إلى الجنة ، وتفرد الله ذى الجلال ، وتوجه الوجود لذاته بالتسبيح والتحميد .

يقول صاحب الظلال : « وهو مشهد رائع حافل ، يبدأ متحركا ، ثم يسير وئيداً ، حتى تهدأ كل حركة ، وتسكن كل نأمة ، ويخيم على ساحة العرض جلال الصمت ورهبة الخشوع بين يدى الله الواحد القهار .

ها هى ذى الصيحة الأولى تنبعث ، فيصعق من يكون باقياً على ظهر الأرض من الأحياء ، ومن فى السموات كذلك إلا من شاء الله ـ ولا نعلم كم يمضى من الوقت حتى تنبعث الصيحة الثانية، ولا تذكر الصيحة الثالثة هنا ، صيحة الحشر والتجميع ، ولا تصور ضجة الحشر وعجيج الزحام ؛ لأن هذا المشهد يرسم هنا فى هدوء ويتحرك فى سكون ؛ فالجميع يقلبون أبصارهم فى الجهات نظر المبهوت إذا فاجأة خطب ، أو ينظرون أمر الله فيهم .

قال ابن كثير: « هذه النفخة هى الثانية ، وهى نفخة الصعق ، وهى التى يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله كما جاء مصرحا به مفسراً فى حديث الصور المشهور، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولا وهو الباقى آخراً بالديمومة والبقاء ، ويقول : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ (غافر : ١٦) ثلاث مرات ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول : ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (غافر : ١٦) أنا الذى كنت وحدى وقد قهرت كل شىء ، وحكمت بالفناء على كل شىء ، ثم يجىء يحيى أول من يحيى إسرافيل ، ويأمره أن ينفخ فى الصور أخرى ، وهى النفخة الثالثة : نفخة البعث ، قال الله عز وجل : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ أى : أحياء بعد ما كانوا عظاما ورفاتا صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة .

ويذكر السياق أرض الساحة التى يتم فيها الاستعراض ، ونور ربها الذى لا نور غيره فى هذا المقام ، ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ الحافظ لأعمال العباد ، ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ ليقولوا كلمة الحق التى يعلمون ، وطوى كل خصام وجدال ـ فى هذا المشهد ـ تنسيقا لجوه مع الجلال والخشوع الذى يسود الموقف العام ، فلا حاجة إلى كلمة تقال ، ولا إلى صوت واحد يرتفع ، ومن ثم تجمل وتطوى عملية الحساب والسؤال والجواب التى تعرض فى مشاهد أخرى ؛ لأن المقام هنا مقام روعة وجلال .

قال الإمام فخر الدين الرازى : « إنه تعالى ذكر فى هذه الآية من أحوال ذلك اليوم أشياء :

أولها : قوله : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ : ... **وثانيها** : قوله : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ وفى المراد بالكتاب وجوه الأول : إنه اللوح المحفوظ الذى يحصل فيه شرح أحوال عالم الدنيا إلى وقت قيام القيامة ، الثانى : المراد كتب الأعمال **وثالثها** : قوله : ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ والمراد أن يكونوا شهداء على الناس ... ورابعها : قوله : ﴿ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ والمراد ما قاله فى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة : ١٤٣) أو أراد بالشهداء المؤمنين :

ولما بين الله تعالى أنه يحضر فى محفل القيامة جميع ما يحتاج إليه فى فصل الحكومات وقطع الخصومات ، بين تعالى أنه يوصل إلى كل أحد حقه ، وعبر تعالى عن هذا المعنى بأربع عبارات : **أولها** : قوله تعالى : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ ، **وثانيها** : قوله ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾. **وثالثها** : قوله : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أى وفيت كل نفس جزاء ما عملت . **ورابعها** : قوله : ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ ويعنى أنه تعالى إذا لم يكن عالما بكيفيات أحوالهم فلعله لا يقضى بالحق لأجل عدم العلم ، أما إذا كان عالما بمقادير أفعالهم وبكيفياتها امتنع دخول الخطأ فى ذلك الحكم ، فثبت أنه تعالى عبر عن هذا المقصود بهذه العبارات المختلفة ، والمقصود المبالغة فى تقرير أن كل مكلف فإنه يصل إلى حقه » .

ثم يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار ، وإنما يساقون سوقا عنيفا بزجر وتهديد ووعيد، هذا وهم عطاش ظماء ، صم وبكم وعمى ، ومنهم من يمشى على وجهه ، وبمجرد وصولهم إليها فتحت أبوابها سريعا ، لتعجل لهم العقوبة ، وقال لهم خزنتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق ، شداد القوى ، على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل : ألم يأتكم رسل من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم يتلون عليكم آيات ربكم ووحيه ويقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه ، ويحذرونكم من شر هذا اليوم ، فيقول الكفار لهم: بلى قد جاؤونا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين،ولكن كذبناهم وخالفناهم، لما سبق إلينا من الشقوة التى كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل ، وكل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب ، ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين ، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به ، ولهذا قيل : ادخلوا أبواب جهنم ما كثين فيها لا خروج لكم منها ، ولا زول لكم عنها فبئس المصير بسبب تكبركم فى الدنيا وإبائكم عن اتباع الحق ، فهو الذى صيّركم إلى ما أنتم فيه فبئس الحال المال .

ثم يخبر عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدًا إلى الجنة حتى إذا وصلوا إلى أبواب الجنة فتحت لهم إكراما وتعظيما ، وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء وكان ذلك بسبب تطهركم وكنتم طيبين وجئتم طيبين فما يكون فيها إلا الطيب وما يدخلها إلا الطيبون وهو الخلود فى ذلك النعيم ، ويقول المؤمنون وإذا عاينوا فى الجنة ذلك الثواب الوافر. الحمد لله الذى وعدنا الجنة فوفى لنا ، وأورثنا أرض الجنة ننزل منها أى مكان شئنا ونتناول منها أى نعيم أردنا ، فنعم أجر المجتهدين بطاعة ربهم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ على المسلم أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه ربه فى الآخرة .

٢ ـ التنديد بالاستكبار عن عبادة الله وعلى عباده تعالى .

٣ ـ الآخرة حساب بلا عمل ، وخلود فى الجنة أو النار ، والمؤمن خير من يعمل لآخرته .

وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾
سُورَةُ غَافِرٍ
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
حٰمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ
ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ
إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ
لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ
وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا
فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾
٤٦٧

معانى الكلمات :

حافين : محدقين محيطين .

غافر الذنب : ساتر الذنب .

ذى الطول: ذى الغنى والإنعام والتفضل .

يغررنك : يخدعك .

تقلبهم : تنقلهم .

ليدحضوا : ليبطلوا .

حقت : وجبت .

وقهم : واحفظهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الكون كله يتجه إلى ربه بالحمد فى خشوع واستسلام .

٢ ـ أن نتعرف على مصارع الغابرين .

٣ ـ أن نعلم حقيقة المعركة بين الإيمان والكفر .

المحتوى التربوى :

لما ذكر تعالى حكمه فى أهل الجنة والنار ، وأنه نزل كلا فى المحل الذى يليق به ويصلح له ، وهو العادل فى ذلك الذى لا يجور أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول عرشه المجيد ، يسبحون بحمد ربهم ، ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور ، وقد فصل القضية ، وقضى الأمر ، وحكم بالعدل بين الخلائق ؛ ونطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه ـ لله رب العالمين ، بالحمد فى حكمه وعدله ، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه ، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد .